غديرية كعب بن زهير في مدح أمير المؤمنين (ع)

مقاربة أسلوبية نقدية

عادل عباس هويدي ♦

عقيل جاسم دهش ♦

التمهيد :

يمثّل الشاعر كعب بن زهير مرحلة مهمة من مراحل شكل القصيدة العربية ومضمونها، إذ إنّه عاش أيام التحول من الجاهلية إلى الإسلام، وما رافقها من تغيّر في القيم الاجتماعية والدينية والحياتية عامة.

هذا التحوّل الكبير في حياة العرب آنذاك لم يكن وليد لحظته، بل كانت هناك إرهاصات تنبئ عن ذلك، وخاصة عند المتطلعين من الناس من نحو المتدينين والشعراء، فقد كان زهير بن أبي سلمى، وهو والد شاعرنا له وقفات طيبة تنبئ عن تألهه وإيمانه بالبعث وقد حرص بذلك في شعره وهي ظاهرة للعيان كقوله[1]:

فلا تكتمنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخّره فيوضع في كتابٍ فيدّخر ليوم الحساب أو يعجل فينقمِ

وهذا التوجه في شعر زهير بن أبي سلمى، إنما يعبر عن الحاجة الاجتماعية لمثل هذا الأمر، لأنّ المجتمع العربي آنذاك، كانت تسيطر عليه آفة الانحراف عن القيم والمبادئ الصالحة، فمثلاً كان غزو أي قبيلة لأخرى وأسر نسائهم وسلب إبلهم يعدّ قيمة اجتماعية كبيرة، وإنا في هذا لا نعدم وجود الفضائل في القبيلة، بل أن السائد فيها ما ذكرناه.

لذا فإن الشعر العربي يومئذ كان يصّور هذه القيم بأشكالها الطيبة والمشينة التي سادت الحياة العربية ولم تفارقها من نحو السلب والنهب والقتل والتشبيب بالنساء ونبز أعراض الناس وغيرها، فكانت القصيدة

♦ مدرس دكتور في مركز دراسات الكوفة / جامعة الكوفة .

♦ مدرس دكتور في مركز دراسات الكوفة / جامعة الكوفة .

العربية تحمل هموم الشاعر، كونه يمثّل الواجهة الثقافية في المجتمع العربي ومصوّر قيمه وعاداته وتقاليده.

ولمّا كانت حياة العرب حياة بداوة وتنقل وصحراء، فقد كان الشاعر العربي يهيم بأفكاره في أفق واسع باتساع الصحراء التي لا تحدّها بنظره حدود أو عوارض، فكان يأخذه الخيال بسحره إلى حيث لا ينتهي اللامحدود وهذا مما أو قد عواطفه وأرهف إحساسه فكان يحنّ مع حنين إبله إلى آثار دياره التي عاش فيها زمناً ثم تركها إلى أخرى حيث الماء والكلأ

فتعلّق الشاعر بالآثار والرفاق من نحو الأبل والخيل وغيرها من الحيوانات الأخرى فضلا عن نساء القبيلة وخاصة الجميلات منها، كلها طبعت شعره بهذه المفردات، فمثلها في قصائده بل جعل لها الصدارة فيها فكانت مقدمته الطللية تحمل كل هذه الهموم والصور، بل أن الشاعر قد خصّص أكثر ابيات قصيدته لها، فهو يبدأ بالتغزل بالحبيبة، ثم يذكر الخيل والإبل أو غيرها، وعندما يريد أن يمدح سيداً أو أميراً أو ملكاً، يبّين ما لقيه من التعب والعنت أثناء رحلته في سبيل المدح كي يجزل له العطاء ويرجع بالغنيمة إلى أهله، أو لإرضاء ذلك السيد أن كان غاضباً عليه.

فضلا عن ذلك نجد القيم الاجتماعية الطيبة والدعوة إلى الألفة وعدم الاقتتال ومكارم الاخلاق هي الأخرى قد ظهرت في الشعر العربي، فهذا زهير بن أبي سلمى قد دعا اليها، وهي مبثوثة في قصائده منها قوله[٢]:

السترُ دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخيرِ من يسترِ

وقوله[٣]:

ومن لم يصانع في أمورٍ كثيرة يضرَّس بأنيابٍ ويوطأ بمنسمِ
ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يَفرْهُ ومن لا يتقي الشتم يشتم
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله على قومه يستغنِ عنه ويذمم
ومن يوفَ لا يذمم ومن يهدِ قلبه إلى مطمئنَّ البرِّ لا يتجمجم

وزهير شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام (وروي أن رسول الله k نظر إلى زهير وله مئة سنة فقال:"اللهم اعذني من شيطانه، أي فمالاك بعد ذلك بيتاً حتى مات)[٤] ومن أثر تألهه واختلاف عقيدته عن قومه انه (رأني في منامه في آخر عمره أن أتياً أتاه تحمله إلى السماء حتى كاد يمسّها بيده ثم تركه فهوى إلى الأرض، فلما احتضر قصَّ رؤياه على ولده كعب ثم قال: إنّي لا أشك انه كائن من خبر السماء بعدي، فان كان فتمسكوا به وسارعوا إليه، ثم مات قبل المبعث بسنة)[٥]

وقد ظهر أثر ذلك كله في شعر ولده كعب إذ يقول[٦]:

إعلم إنّي متى يأتني قدري فليس يحبسه شحٌّ ولا شفقُ
بينا الفتى معجبٌ بالعيش مغتبطٌ إذا الفتى للمنايا مسلمٌ غلق
والمرء والحال ينمي ثم يذهبه مَرَّ الدهور ويغنيه فينسحقُ
كالغض بينا تراه ناعماً هدياً إذا هاج وانحتَّ من أفنانه الورق

وعدّه شوقي صيف بأنه(يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم في رزق غد بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر. وله قصيدة لامية يظهر انه نظمها في الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر مع ما يصطفيه ويظهر انه عاد فادخل فيها بعد اسلامه هذه الأبيات)[٧]:

فأقسمتُ بالرحمن لا شيء غيره يمين أمرئ برٍّ ولا اتحللُ
لاستشعرن أعلى دَرِيسيّ مسلماً لوجه الذي يحيى الانام ويقتلُ
هو الحافظ الوسنان بالليل ميتاً على انه حيٌّ من النوم مثقلُ
من الاسود الساري وان كان ثائراً على حدِّ نابيه الشمام المثَّملُ

وقد عّده ابن سلام الجمحي(ت٢٣١هـ)من فحول شعراء الطبقة الثالثة، وهم أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم وكعب بن زهير، والحطئية[٨]، وهو مقدم في الجاهلية والاسلام حتى قيل لخلف الأحمر: زهير اشعر أم ابن كعب؟ قال لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت أن كعباً اشعر منه، يريه قوله[٩]:

لمن الديار بقنّةِ الحَجْرِ أقوين حجج ومن دهرِ
ولأنت اشجعُ من اسامة إذ دعِيَ النزال ولجَّ في الذعر
ولأنت تغري ما خلقت وبعـ ـض ويعرض القوم يخلق ثم لا يفري
لو كنتَ من شيء سوى بشرِ كنتَ المنّور ليلة البدر

وكان ابوه زهير ـ كما تذكر الرواة ـ أن طريقته التي كان يعلّم أولاده الشعر فيها، كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين، حتى تنضج موهبته ويقوى عوده عليه، فكان زهير يخرج بولده كعب إلى الصحراء فيلقي عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يجيزه ليمرّنه على قول الشعر، بل وكان ينهاه عن قول الشعر مخافة أن يقول مالا خير فيه، ونقل عن ثعلب أنه يقول:(وتحرك كعب بن زهير بن أبي سلمى وهو يتكلم الشعر فكان زهير ينهاه مخافة أن يكون لم يستحكم فيروى له مالا خير فيه فكان يضربه في ذلك ففعل ذلك مراراً يضربه ويزبره، فغلبه فطال ذلك عليه فأخذه فحبسه، ثم قال: والذي أحلف به لا

تتكلم ببيت شعر ولا يبلغني أنك تريغ الشعر إلا ضربتك ضرباً ينكلك عن ذلك فمكث محبوساً عدة أيام ثم أخبر أنه يتكلم به، فدعاه فضربه ضرباً شديداً، وسرّحه في بهمة وهو غلام صغير، فانطلق فرعاها ثم راح بها عشية وهو يرتجز:

كأنما أحدو ببهمي عيراً من القرى موقرة شعيراً[١٠]

وانما كان ذلك من ابيه زهير مخافة أن يتسفل، فيأتي بالضعيف فيشوه مجد الأسرة، فما زال يهذب لسانه ويجهز شاعريته برواية الشعر حتى استقام له النظم[١١]. وبزّ أقرانه، فهو من بيت تناسل فيه الشعراء، إذ ولد كعب بن زهير في غطفان قبيلة امه كبشة، ونشأ في بيت توفرت له القرائح الشعرية، وتشهد له آثار احد عشر شاعراً من نسل أبي سلمى جد كعب[١٢]، منهم جده أبو سلمى، وهو القائل في خاله اسعد المريّ وابنه كعب بن اسعد وكان حمل أمه وفارقها[١٣]:

لتصّرفن إبلُ محبَّبة من عند أسعدَ وابنه كعب

الأكلين صريح قومهما أطل الحبارن يرعم الرطب

وابوه زهير بن أبي سلمى، وعقبة بن كعب ولقبه المضرّب، وذلك أنه شبب بامرأة من بني اسد، فضربه أخوها مئة ضربة بالسيف فلم يمت، واخذ الدية فسمي "المضّرب" وَوُلِدَ لعقبة العوام وهو شاعر، قال ابن قتيبة: (فهؤلاء خمسة شعراء في نسقه: العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى)[١٤].

وكان كعب رواية لأبيه زهير، وكذلك الحطئية جرول بن اوس، إذ كان زهيرٌ أستاذه، و(سئل عنه الحطيئة فقال:ما رأيت مثله في تكفيه على أكناف القوافي وأخذه باعنتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذماً)[١٥]، وكان متن الشعر وقال يوماً لكعب بن زهير:(قد علمتم روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً، فان الناس لاشعاركم اروى واليها أسرع، فقال كعب[١٦]:

فحن للقوافي؟ شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفَّوّز جرول

يقول فلا يعي بشيء يقوله ومن قائلِيها من يُسيء ويعملُ

كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تنخّلَ منها مثل ما يتنخّلُ

يثقّفها حتىَ يلينَ متونها فيقصرُ عنها كلُّ ما يتمثّلُ

أما قصة اسلامه، فهو في بادئ الأمر كان قد نهىَ، اخاه بجيراً عندما اسلم، الذي شهد مع النبي k فتح مكة وحنيناً، فأرسل إليه كعب ابياتاً ينهاه عن الإسلام، وذكر ذلك بجير للنبي k فأوعده، فأرسل بجير إليه:(ويلك! إن النبي اوعدك، وقد اوعد رجالاً بمكة فقتلهم، وهو والله قاتلك أو تأتيه فتسلم، فاستطير

ولفظته الأرض، فلما وصله الخبر، قدِمَ كعبٌ متنكراً حين بلغه عن النبي ما بلغه، وكان وصوله عند صلاة الصبح، فلما سلّم النبي k منها قدم عليه كعب لأعلان اسلامه، فبسط النبي k يده، فحسر كعب عن وجهه، وقال هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، انا كعب بن زهير، فتجهمته الانصار وغلظت له، لذكره كان قبل ذلك رسول الله k، وأحبّت المهاجرة أن تسلم ويؤمنه، النبي k واستنشده[١٧]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يجزَ مكلوك
وما سعدُ غداة البين إذ تعرضت إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول
وما تدوم على العهد الذي زعمت كما تلوّن في أثوابها الغولُ
ولا تمسك بالود الذي زعمت الا كما تمسك الماء الغرابيل
كانت مواعيد عرتوب لها مثلاً وما مواعيده إلا الاباطيل

ثم قال معتذراً من رسول الله k:

نبّئتَ انّ رسول الله اوعدني والوعد عند رسول الله مبذول
مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة، ولم أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

ثم قال مادحاً له k:

أن الرسول لنور يستضاء به وصارمٌ من سيوف الله مسلولُ
في عصبةٍ من قريشٍ قال قائلها ببطنِ مكة لما اسلموا زولوا
زالوا، فما زال انكاسٌ ولا كشفٌ يوم اللقاء ولا سودٌ مغازيل

فنظر رسول الله إلى من عنده من قريش، كأنه يوميء اليهم أن يسمعوا له، فلما انتهى من قصيدته كساه النبي k بردة[١٨]. فسميت قصيدته بالبردة، فطار صيتها وعمّت شهرتها في الآفاق، وتناولها العلماء بالشرح والتخميس والتشطير والمعارضة، فقد شرحها كثيرون منهم ابن دريد والتبريزي وابن هشام والباجوري وطبعت مراراً[١٩].

وكان كعب من الصحابة الصالحين، وعدّه السيد محسن الأمين (رحمه الله) من أعيان الشيعة ومحبّي آل البيت Γ وله في ذلك شعر منه، ذكر فيه الحسين بن علي (ع) فقال[٢٠]:

مسح النبي جبينه فله بياضٌ في الخدود

وبوجهه ديباجه كرم النبوة والجدود

ومنه قصيدته التي مدح فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وقد ذكرت في شرح ديوانه برواية السكري كاملة[٢١]، وذكرها محمد بن المبارك البغدادي(ت٥٩٧هـ) عن روايتها أيضاً، حيث يقول:(وقال كعب يمدح أمير المؤمنين علياً (ع) وكانت بنو أمية تنهي عن روايتها وأضافتها إلى شعره،أنشدنيها ابن الخطاب صاحب الخبر، وكان خطيباً من غلمان أبي زكريا الأنصاري)[٢٢]. في ثمانٍ وعشرين بيتاً وروى له السيد محسن الأمين أبياتا رواها عن ابن شهر ايوب في المناقب من قصيدته وذكره منها قوله[٢٣]:

صهر النبي وخير الناس كلهم وكل من رأسه بالفجر مفخور

صلى الصلاة مع الأميّ أولهم قبل العباد دربّ الناس مكفور

وكذلك روى هذه الأبيات الشيخ الاميني في موسوعة الغدير، وذكر أن الزرقاني في شرح المواهب قال أن له قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين (ع) وذكرها كاملة [٢٤]، والقصيدة هي:

قال كعب بن زهير يمدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وكانت بنو أمية تنهي عن روايتها وإضافتها إلى شعره:

هل حبل رملة قبل البين مبتور أم انت بالحلم بعد الجهل معذورُ

ما يجمع الشوقُ إن دار بنا شطحت ومثلها في تداني الدار مهجورُ

نشفي بها وهي داء لو تصاقبنا كما اشتفى بعياد الخمر مخمورُ

ما روضةٌ من رياضي الحزن باكرها بالنبت مختلفِ الألوان ممطورُ

يوماً بأطيب منها نشر رائحة بعُد المنام إذا حبَّ المعاطيرُ

ما أنس لا أنسها والدمع منسرب كانه لؤلؤ في الخدِ محدورُ

لما رأيتهم زمَّت جمالهم صدّقت ما زعموا والبين محذورُ

يحدو بهم أخو قاذورة حذرٌ كأنه بجميع الناسِ موتورُ

كأنّ أظعانهم تحذى مقفيةً نخلٌ بعينين ملتفَّ مواقير

غُلب الرقابِ سقاها جدولٌ سَرِبٌ أو مشعبٌ من أتيِّ البحر مفجورُ

هل تبلّغني عليّ الخيرِ ذعلبةٌ حرفٌ تزلُّ عن أصلابها الكورُ

من خلفها قلصٌ تجري أزمَّتها قد مسّهن مع الإدلاج تهجير

يخبطن بالقومِ أنضاء السريح وقد لاذتْ من الشمس بالظلِّ اليعافير

حتى إذا انتصب الحرباء وانتقلت وحان إذا هجروا بالدوِّ تغويرُ

قالوا تنحّوا فمسّوا الأرض فاحتولوا ظلاًّ بمنخرقٍ تهفو به المورُ

ظلّوا كأنّ عليهم طائراً علقاً يهفو إذا انسفرت عنه الأعاصيرُ

لوجهةِ الريح منه جانبٌ سلِبٌ وجانبٌ بأكفّ القوم مضبورُ

حتى إذا أبردوا قاموا إلى قُلصٍ كأنّهنَّ قِسِيُّ الشوحطِ الزورُ

عواسل كرعيل الرُّبد أفزعها بالسيِّ من قانصٍ شلٌّ وتنقيرُ

حتى سقى الليل سقْي الجنِّ فانغمست في جوزه،إذ دحا، الآكام والقورُ

غطّىَ النشاز مع الأكامِ فاشتبها كلاهما في سوادِ الليل مغمورُ

* * * * *

إن عليّاً لميمونٌ نقيبته بالصالحاتِ من الأفعال مشهورُ

صهرُ النبيِّ وخير الناسِ مفتخراً فكلُّ من رامه بالفخرِ مفخورُ

صّلى الطهور مع الأميّ اولهم قبل العماد وربُّ الناسِ مكفورُ

مقاومٌ لطغاةِ الشركِ يضربهم حتى استقاموا ودينُ الله منصورُ

بالعدل قمت أميناً حين خالفه أهلُ الهوى وذوو الأهواءِ والزورُ

يا خيرَ مَنْ حملت نعلاً له قدمٌ بعد النبيِّ لديه البغيُ مهجورُ

أعطاك ربُّكَ فضلاً لا زوالَ له من أين أنّي له الأيام تغييرُ

الدراسة :

أولا : أسلوب الاستفهام :

وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وقد خرج في القصيدة عن دلالته الأصلية الى دلالات أخرى مجازية، فقد استهلّ القصيدة بالاستفهام الإنكاري[٢٥]، في قوله (هل حبل رملة .. مبتور) للتفريغ عن ذلك التأزم النفسي الذي كان يعصف به أشد العصف، فكأنه ينكر على نفسه ما مضى من أطوار حياته التي قضاها في الغواية والضلال أو يعزّيها باعتذاريّة يكفّر بها جرائره وإساءاته وساعات لهوه ومجونه. ويعزز ما ذهبنا إليه مجيء الطباق بين (الحلم) و(الجهل) بوصفهما طرفي نقيض، ولعلهما دالتان على الهداية والضلال بدلالة تقدم (الحلم) صيغة اسم المفعول خمس عشر مرة في القصيدة للتخفيف عمّا يشعر به من الندم على ما تقدّم من أطوار حياته التي قضاها في اللهو والعبث قبل الإسلام وكأنه ليس له في ما صدر من أفعال قبيحة وإساءة بحق نفسه وإن القدر كان له القدح المعلى في ذلك وكأنه هو الذي أوقعه في تلك المطبات وهو المغلوب على أمره الذي لا سلطان لع على عبثيّة القدر وتخرّصاته .

وقد جاء الاستفهام بالحرف (هل) في قوله (هل تبلغني)، و(هل) حرف يستفهم به عن نسبة بين شيئين فيجاب عنه بإثبات النسبة أو نفيها، وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة على التقرير[٢٦]، أي إقرار حصول الشيء وإثبات وقوعه، وهذا أبلغ في الدلالة لأن إقرار الشيء بالجملة الاستفهامية آكد من إراره بالجملة الخبرية.

كما ورد الاستفهام الإنكاري في قوله (من أين أنى) في إشارة الى أن شرف العطاء وسعته ودوامه من شرف صاحبه وسعته ودوامه، ولمّا كان العطاء من قبل الذات المقدسة جرّده عن الزمانية والمكانية والحالية باستعمال اسم الاستفهام (أنى) الذي يأتي للحال أو الزمان أو المكان، بحسب غرض المتكلم وقرينة السياق، ولمّا كان العطاء من الله سبحانه مطلقا لا تحدّه زمانية ولا مكانية ولا حالية أفادت (أنى) الدلالة على مطلق الزمان والمكان والحال، في معرض تعزيز دلالة الاستفهام الإنكاري باستعمال (أين) التي أفادت نفي إمكان حصول التغيير من أي وجه. وقد تأكّد نفي زوال الفضل بالجملة الاستفهامية وهذا أبلغ في تأكيد النفي، وفيه لمحة بلاغية لطيفة تتمثل في العدول من الجملة الخبرية الى الجملة الإنشائية ومن النفي الى الاستفهام .

ثاني : أسلوب التنكير :

لقد استعمل النكرة في قوله (ما روضة) ، فهي روضة غنّاء تزهو بألوان الزهور وأصناف النباتات وهي تملأ الفضاء بالروائح العطرة، وقد جاء بها نكرة للدلالة على تفرّدها في الصفة، وأراد المبالغة في تصوير جمالها وطيب روائحها وانتشارها في كل مكان، فهي روضة فريدة لا تكاد تجد لها نظيرا في جمال منظرها واتساق ألوانها وسحر أريجها وقوّته وانتشاره .

كما ورد استعمال النكرة في قوله (هل تبلغني ذعلبة)، وقد أفاد التنكير معنى التعظيم[٢٧]، لكونه في معرض الفخر بناقته التي ربما أسقط نفسه عليها وكأنه يفخر بنفسه وبقدرته على اقتحام الصعاب ومكابدة

الأهوال للوصول الى مبتغاه وتحقيق ما يلبي الطووح، ولذلك كان لزاما أن يضفي على ناقته من سمات القوة والشدة والصلابة والمضاء لتكون أقدر على تحمّل الأهواء والشدائد، وما ينتظرها من الجوع والظمأ ووعوثة الطريق وحرّ الهجير، وهي تقطع المسافات الطويلة في رحلتها الى الممدوح، ولذلك فهي ناقة (حرف)، أي ماضية شديدة الصلابة، وهي لدقّتها ومضائها لا يكاد يستقرّ على ظهرها رحل وهي تمضي مسرعة في طريقها. وقد استعمل صيغة (تفعّل)، في قوله (تزلّل)، التي تفيد معنى التدريج[٢٨]، وذلك للمبالغة في وصف الاهتزاز الحاصل في الرحل لحظة الانطلاق لدقتها وسرعة جريها.

ثالثا : أسلوب التوكيد بالحرف :

جاء التوكيد بالحرف في قوله (إنّ عليا لميمون نقيبته) في معرض المدح لأمير المؤمنين علي (ع) وتسليط الضوء على صفة بعينها وإبرازها وتأكيدها وذلك أنه لمّا كان الإمام مشهورا بصلابته وشدته في الحق وكانت قريش تلقّبه منذ نعومة أظفاره بـ(القظيم) لأنه كان يقظم آذان الصبية الذين يؤذون رسول الله (ص) فقد غلبت هذه الصفة في أذهان الناس وصاروا ينعتون عليا بالشدة والقسوة والصلابة وكأن الشاعر أراد أن يظهر الجانب الآخر من شمائل علي وهو جانب قد عتّم عليه من قبل حاسديه ومبغضيه وهو صفة السلاسة والمطاوعة ولين العريكة، ولتأكيد هذه الصفة التي اجتهد الخصوم في إخفائها وإنكارها عليه تطلّب أن يستعمل الصيغة الاسمية، التي تفيد الثبوت والاستقرار، لترسيخ المعنى المتقدم في ذهن المتلقي، فهي طبيعة في تكوينه وسجيّة من سجايا نفسه نشأ وترعرع عليها وحرص كل الحرص على تنميتها وتأكيدها، ولم يقنعه ما تقدم من بيان الصفة وترسيخها في النفس ليعمد الى استعمال أقوى أساليب التوكيد بمجيء الحرف المشبه بالفعل (إنّ) واللام الداخلة على خبره لإثبات الدعوى وتأكيد أن هذا أمر مفروغ منه ولا سبيل الى إنكاره أو الجدال فيه .

رابعا : الصورة الشعرية :

أ- مصادر الصورة :

١- القرآن الكريم :

يشكل القرآن الكريم مصدرا مهما من مصادر الصورة في قصيدة كعب، ويرجع ذلك الى تعلّق الشاعر بنصوص القرآن وتذوقه لصوره الفنية وحرصه الشديد على تمثلها في شعره، كيف لا ؟ وقد أخذ منه القرآن مأخذا وأثر في نفسيته وسلوكه وإحساسه بعد أن هداه الله للإيمان ومنّ عليه بنعمة الإسلام ليطوي أطوارا مظلمة من حياته في عهد الكفر والغواية والضلال . ومن ذلك تمثّله لقوله تعالى (عطاء غير مجذوذ)[٢٩]، في قوله :

أعطاك ربك فضلا لا زوال له من أين أنّى له الأيام تغيير

فالفضل الذي لا يزول هو العطاء الممتد الى ما لا نهاية، وقد ذكر الزمخشري أن قوله (غير مجذوذ) يعني عطاء ممتدا الى غير نهاية[٣٠]، وقد ورد كلا النصين منفيا لنفي إمكان زوال العطاء وتأكيد اتصاله ودوامه .

ومن ذلك صورة الرجل المظفر الذي تحقق الفتح على يديه في قوله :

مقاوم لطغاة الشرك يضربهم حتى استقاموا ودين الله منصور

فقد عرف عن علي (ع) حسن بلائه في الحروب وتفانيه في الدفاع عن الإسلام، كما عرف عنه أنه شديد في الله لا يجامل ولا يداهن على حساب دينه وأنه لم يزل يقاتل بين يدي رسول الله (ص) فيضرب خراطيم الكفر والنفاق بسيفه حتى تحقق وعد الله بنصر دينه وإعلاء كلمة الإسلام. وقد أخذه من قوله تعالى "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم"[٣١]، فقد ذهب كثير من المفسرين الى أنها نزلت في (علي) وأنه هو الذي يحبه الله ويحب الله وأنه هو الذي لا يخشى في الله أحدا ولا تأخذه في الحق لومة لائم[٣٢] .

٢- الشعر الجاهلي :

يشكل الشعر الجاهلي مصدرا مهما من مصادر القصيدة لكون الشاعر من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في عصر ما قبل الإسلام وشهدوا العصر الإسلامي، وطبيعي في هذه الحال أن تمتزج روحه وعقله وأحاسيسه بالشعر الجاهلي الذي يعد مصدرا من مصادر ثقافته وديوانا لمفاخره ومفاخر قبيلته وقومه وسجلا حافلا بأحداث العصر الذي سبق عصر الرسالة الإسلامية، ذلك العصر الذي قضى فيه أطوارا من حياته وعاصر أحداثه . ومن ذلك تشبيه رائحة فم المرأة بعطر الزهور المنبعث من روضة غنّاء في قوله :

ما روضة من رياض الحزن باكرها بالنبت مختلف الألوان ممطور

يوما بأطيب منها نشر رائحة بعد المنام إذا حبّ المعاطير

إذ شبّه رائحة فمها بريح روضة كاملة النبت أصابها المطر فانتشرت روائح ورودها ورياحينها حتى ملأت الفضاء، وقد جاء بها نكرة للدلالة على تفرّدها واختصاصها بالوصف دون سواها، فهي روضة لا كالرياض، وذلك لحسن منظرها في العين وسحر فتنها للفؤاد ووقع طيبها نشر روائحها في النفس. وقد أخذه من قول عنترة :

أو روضة أنفا تضمّن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم[٣٣]

الذي شبه فيه الرائحة المنبعثة من فم حبيبته بطيب نشر روائح روضة أنف أصابها المطر، والأنف التي لم ترع، وقد جعلها بعيدة عن العيون، وهذا أبلغ في تفرّدها وطيب روائحها .

ومن ذلك تلك الصورة الطريفة التي شبه فيها حبيبته بالخمرة في قوله :

نشفي به وهي داء لو تصاقبنا كما اشتفى بعياد الخمر مخمور

وهي تشبه الخمرة لكونهما ممّا يشتفى منه به، إذ إن وصالها يطفئ جمر ما اكتوى به من نار الفراق، وهو بذلك يرسم لنا صورة غاية في الروعة في معادلة تجمع بين نقيضين من خلال المطابقة بين الداء والدواء المتمثلين في (نشفي) و(داء)، ولمّا كان الأمر يبدو في غاية الغرابة والإنكار فقد مثّل له في الشطر الثاني بأمر معروف ودعوى لا سبيل الى إنكارها، وهو قوله (كما اشتفى)، إذ كان الدواء من جنس الداء وكان الاستشفاء من داء السكر بمعاودة الشراب، ويتجلى في الصورة عنصر ثالث، وهو ديار الحبيبة، إذ إن الوقوف على تلك الديار الخالية وإن كان يهيج الذكريات ويؤجج المشاعر لكنه في الوقت نفسه يجدد الأمل في اللقاء ويمني النفس بالوصل من بعد القطيعة والهجران، ولم تكن المطابقة على الصعيد الدلالي فحسب بل جاءت على الصعيد النحوي بين البنية الفعلية والبنية الاسمية، وفي ذلك نكتة لطيفة وهي أن دلالة الاسم على الثبوت أضفى على الصورة صبغة الرتابة والركود لتعزيز الشعور باليأس وفي قبال ذلك فإن دلالة الفعل على التحول منح الصورة بعدا حركيا لتقرير الشعور بالحيوية والتجدد. وقد أخذها من قول عدي بن زيد العبادي :

جزعا ما أعرضت عن بائن جاء يستشفي شفاء من سقم[٣٤]

وهذا المعنى طرقه غير واحد من الشعراء، وقد جاء على ذلك قول الأعشى يشتفي بالخمرة منها:

وكأس شربت على لذّة وأخرى تداويت منها بها[٣٥]

٣- المثل العربي :

يشكل المثل العربي مادة غنية في الشعر لما يتضمنه من حكم وتجارب ودلالات في ألفاظ موجزة فضلا عن إيحاء اللفظ وقوّة التأثير في النفس. وقد جاء توظيف المثل في قوله :

ظلوا كأنّ عليهم طائرا علقا يهفو إذا انسفرت عنه الأعاصير

وقد ورد في أمثال العرب قولهم (كأن على رؤوسهم الطير)[٣٦]، وهو مثل يضرب لسكون الشيء وثباته في موضعه .

٤- كلام العرب :

يعد كلام العرب مصدرا مهما من مصادر الشعر العربي، وقد عرف عن كعب بأنه كان راوية لأبيه زهير[٣٧]، ولا شك أن الراوية فضلا عن حفظه للشعر وروايته له فإنه يحفظ كلام العرب ويتمثل به . وقد استقى كعب صورة رائعة من صور القصيدة، وهي صورة الرجل المبارك اللين النفس الموسوم باليمن والظفر، وذلك في قوله :

إنّ عليا لميمون نقيبته بالصالحات من الأفعال مشهور

استقاها من من قول العرب (فلان ليّن العريكة) إذا كان مبارك النفس سلسا مطاوعا مظفر بما يسعى[٣٨].

ب- أنماط الصورة :

١- التشبيه :

حفلت القصيدة بصور تشبيهية جميلة، وقد غلب عليها الطابع الحسي، فلم يخرج كعب في تشبيهاته عمّا كان مألوفا في القصيدة الجاهلية من غلبة الصفة الحسيّة في تشكيل صورها واقتناء مواد الصورة من عناصر الطبيعة، فلم يكن الشاعر الجاهلي ليجنح الى الخيال لتشكيل صوره إلاّ في النادر وإنما كان يجنح الى توظيف حواسّه للتعبير عن أفكاره ومشاعره . ومن التشبيهات الواردة في القصيدة :

تشبيه الظعن بالنخيل في قوله :

كأنّ أظعانهم تحدى مقفّية نخل بعينين ملتف مواقير

الصورة حسيّة مستوحاة من عناصر الطبيعة (الغبل والنخيل)، ووجه الشبه هو ثقل الحركة ، فقد شبّه الإبل، وهي تسير يتلو بعضها بعضا، وعليها الهوادج ذات الأحمال الكثيرة، بشجر النخيل وقد اجتمع وتضايق وكثر ثمره واتفّ بعضه ببعض .

تشبيه الدمع باللؤلؤ في قوله :

ما أنس لا أنسها والدمع منسرب كأنه لؤلؤ في الخد محدور

وهي صورة حسّية كلا طرفيها (الدمع-اللؤلؤ) محسوسان، وهي صورة مألوفة وردت كثيرا في الشعر الجاهلي، فعادة ما يشبّه الشاعر العربي الدمع باللؤلؤ في صفائه وبريقه، والمحدور هو الذي يقطر من أعلى الى أسفل، وقد جاء في اللسان: حدر الشيءأي حطّه من علو الى أسفل، وكل شيء أرسلته الى أسفل فقد حدرته. وفيه اتفاتة لطيفة وهي أن المرأة تحتل مكانة كبيرة في نفس العربي ولم تكن مبتذلة أو رخيصة، وأن الشاعر فنان يمتلك إحساسا مرهفا وهو يرى الأشياء لا كما يراها غيره وإن دموع حبيبته أغلى شيء عنده وأعزّ على قلبه ولم تكن لتقل نفاسة عن اللؤلؤ وسواه من المعادن النفيسة .

٢- الاستعارة :

رسم لنا الشاعر من خلال تقنية الاستعارة صورا طريفة كان لها وقع كبير في نفس المتلقي، ومن ذلك استعارة (الحبل) في قوله :

هل حبل رملة قبل البين مبتور أم أنت بالحلم بعد الجهل معذور

وهي استعارة محسوس الى معقول، فقد استعار الحبل لوصال الحبيبة وانقطاعه للهجر والفراق، فكما أن الحبل يصل بين طرفين ويجذبهما الى بعضهما كذلك الحب ينمو ويثمر باجتماع الحبيبين وتجدّد فيه الروح والحياة حرارة الشوق ودفئ الوصال، وإن انقطاع الحبل يعني انقطاع العلائق والوشائج وأن يمضي كل طرف باتجاه وكذلك الفراق يعني انطفاء الحياة ونزع فتيل الأمل واضطرام الشعور باليأس والضياع والتشتت .

ومن الاستعارات اللطيفة قوله (لميمون نقيبته)، وهي استعارة محسوس لمعقول، إذ استعار السلاسة ولين الجانب للظفر في السعي والعمل ليؤكد أن الممدوح على درجة عالية من التوازن النفسي المتمثل في موافقة فعله لسجاياه، فلم يكن إنسانا مركبا أو مزدوج الشخصية بل انعكست شخصيته المتزنة على سلوكه وفعله فلا تجده يقول ما لا يفعل ولا يأمر بما لا يأتمر به ولم يكن ينهى عن شيء يفعله ولم يناقض سرّه علانيّته .

خامسا : أثر القرآن في ألفاظ القصيدة :

اتكأ الشاعر على ألفاظ القرآن الكريم في أختيار ألفاظ النص، ولعله كان يحفظ آيات الله عن ظهر قلب أو أنه- في أقل تقدير- كان ملازما للقرآن مداوما على تلاوته وترديد ألفاظه وتمثلها في كلامه فضلا عن تضمينها في شعره وأدبه. ومن تلك الألفاظ :

١. (الصالحات) : الذي ورد في قوله :

إنّ عليا لميمون نقيبته بالصالحات من الأفعال مشهور

فالصالحات مفردة قرآنية وردت في مواضع كثيرة في القرآن الكريم في معرض وصف عمل الإنسان المؤمن الذي يستحق به الثواب والأجر من الله تعالى بأنه (عمل صالح)، ومن ذلك قوله تعالى "والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة"[٣٩] .

٢. (استقاموا) : الذي ورد في قوله :

مقاوم لطغاة الشرك يضربهم حتى استقاموا ودين الله منصور

ومصطلح الاستقامة مصطلح إسلامي استعمله القرآن في مناسبات كثيرة، والاستقامة هي التوجه الى الله بالعبادة والإخلاص له بالعمل والالتزام بتعاليم الدين الحنيف وتنفيذ أوامر الله والامتناع عن المحرمات[٤٠]، والمستقيم الذي ليس فيه ميل أو انحراف ولا ينتابه شك ولا ريبة ولم ينجر الى شهوة أو يحتكم الى هوى أو يغترّ بمال أو جاه أو سلطان بعد أن أخلص نيّته وطهّر قلبه وخبر طريقه وهذّب سلوكه .

٣. (العدل) : وهو من المصطلحات الإسلامية ويعني أن تعطي لكل ذي حق حقه[٤١]، ويعد ركنا أساسيا من أركان الشرائع السماوية وقانونا تشريعيا ينظم حياة الشعوب والدول وأحد البنود الرئيسة، والمجمع عليها، المستنة في اللوائح العالمية والمنظمات والتفاقيات الدولية. وقد ورد في القرآن مقترنا بالحكم بوصفه الضمانة الأكيدة لبناء الغنسان وصلاح المجتمع، وذلك في قوله تعالى "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"[٤٢] وقوله "وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط"[٤٣]، وقد استعمله الشاعر بمعنى (الحق) في معرض الحديث عن الخلافة في قوله :

بالعدل قمت أمينا حين خالفه أهل الهوى وذوو الأهواء والزور

وذلك للتأكيد بأن خلافة الإمام علي (ع) هي فرض من الله وهي حق منصوص عليه في السنة النبوية، في إشارة الى حديث الثقلين المتواتر في كتب الحديث والسنن، وكذلك بيعة الغدير التي نصّب فيها رسول الله (ص) عليا خليفة من بعده في قول قوله (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) ، وفي معرض التعريض بمن خرج عن السنّة وتنكّر لقول رسول الله وخالف وصيّته واتبع هواه وانحرف عن جادة الحق باغتصابه للخلافة وركوبه للباطل وخيانته للرسول وجوره في الرعية، ويتأكد ذلك باستعمال أسلوب المفاجئة في لمحة فنية رائعة وذلك بمقابلة العدل (مصود به الحق) والأمانة (الالتزام والاتباع والطاعة) مع المخالفة (النقض والخيانة) والزور (الباطل)، وكما هو موضح في المخطط أدناه :

بالعدل (الحق) ....أمينا (متبعا) = خالفوا (خيانة) ...الزور (الباطل)

الهوامش :

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٣٩/١، شرح المعلقات العشر، الشنقيطي:٦٦، ٧٤.
(٢) ظ: الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٤٩/١.
(٣) ظ: شرح المعلقات العشر، الشنقيطي: ٧٨-٧٩.
(٤) شرح المعلقات، الشنقيطي:٦٦.
(٥) م.ن:٦٧.
(٦) شرح ديوان كعب بن زهير، السكري:١٦٦.
(٧) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف:٨٧.
(٨) ظ: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام:٩٧/١.
(٩) الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٣٩/١.
(١٠) ظ: ديوانه:١٢، الاغاني، أبو الفرج الاصفهاني: ١٤١/١٥..
(١١) ظ: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري:٢٢٤
(١٢) ظ: م.ن:٢٢٤.
(١٣) الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٤٣/١.
(١٤) م.ن:١٤٣/١.
(١٥) م.ن:١٤٣-١٤٤.
(١٦) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام:١٠٤/١-١٠٥، ظ:الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٥٦/١.
(١٧) ظ: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام:٩٩/١-١٠٠، الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٥٤/١، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي: د.شوقي ضيف: ٨٤-٨٥، تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري:٢٢٤.
(١٨) ظ: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام: ٩٩/١-١٠٣، الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ١٥٤/١-١٥٦.، شرح ديوان كعب بن زهير، السكري:١٠-٢٤.
(١٩) طبعت في ليدن سنة ١٧٤٨هـ، مع شرح مستفيض، ثم في هال سنة ١٨٩٠م.ثم في ليبسك سنة ١٨٧١م، ثم في برلين سنة ١٨٩٠، ثم في قسطنطينة سنة ١٩٠٤، وطبعت في بيروت سنة ١٩٣١، فضلا عن الطبعات الحديثة وهي كثيرة، وترجمت إلى لغات كثيرة منها اللاتينية والفرنسية والالمانية والانكليزية والايطالية، ظ: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري: ٢٢٥-٢٢٦. ديوان كعب بن زهير مقدمة التحقيق:٦.
(٢٠) المحاسن والمساوئ، ابراهيم البيهقي:٩٧، أعيان الشيعة، الأمين:٢١١/١٣.
(٢١) ظ: المحاسن والمساوي لإبراهيم البيهقي:٦٧، أعيان الشيعة، الأمين:٢١١/١٣.
(٢٢) منتهى الطلب من اشعار العرب، محمد بن المبارك البغدادي:١٠٩/١، ظ: ديوانه:٣٩.
(٢٣) اعيان الشيعة، الأمين:٢١١/٣.

(٢٤) الغدير، الاميني:٣٢٨,/٣
٢٥. ظ : مفتاح العلوم : ٤٢٦,
٢٦. ظ : البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) : ١٩٧ .
٢٧. ظ : البلاغة العالية (علم المعاني) : ٧٩ .
٢٨. ظ : الصرف (حاتم الضامن) : ٥٨ .
٢٩. سورة هود : ١٠٨ .
٣٠. ظ : الكشاف :٤١٥/٢ .
٣١. سورة المائدة : ٥٤ .
٣٢. ظ : مجمع البيان : ٢٦٠/٣ و البحر المحيط : ٣/ ,٧٠٢
٣٣. شرح ديوان عنترة :١٥٧ .
٣٤. ديوان عدي بن زيد : ٧٤ .
٣٥. ديوان الأعشى الكبير : ٢٩ .
٣٦. ظ : مجمع الأمثال (الميداني) :١٥٤/٢ .
٣٧. ظ : في الأدب الجاهلي : ٢٦٦ .
٣٨. ظ : لسان العرب، مادة (عرك) .
٣٩. سورة البقرة : ٨٢ .
٤٠. ظ : الكشاف : ٢/ ١٩٣ .
٤١. ظ : مجمع البيان : ٨٢/٣ .
٤٢. سورة النساء : ٥٨ .
٤٣. سورة المائدة : ٤٢ .

المصـــادر

١. أعيان الشيعة، الإمام السيد محسن الأمين، حققه وأخرجه السيد حسن الأمين ـ دار التعارف للمطبوعات، المطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٢. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، مطبعة الساسي، د.ت.

٣. البحر المحيط : أثير الدين محمد بن يوسف بن حيّان الأندلسي الغرناطي، تحقيق وتعليق عبد الرزاق المهري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١ ، ٢٠٠٢ م.

٤. البلاغة العالية (علم المعاني) : عبد المتعال الصعيدي، مطبعة الآداب- مصر،ط٢ ،١٩٩١ م.

٥. البلاغة فنونها وأفنانها(علم المعاني) : فضل حسن عباس، دار النفائس- الأردن، ط١٢، ٢٠٠٩ م.

تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة.

٦. تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، د.ت.

٧. ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٣ ، ٢٠٠٣ م.

٨. ديوان عدي بن زيد، تحق محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية- بغداد، ١٩٦٥ م.

٩. ديوان كعب بن زهير، حققه وشرحه وقدم له الأستاذ، علي فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٠. شرح ديوان عنترة : الخطيب التبريزي، تقديم مجيد طراد، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١ ، ١٩٩٢ م.

شرح ديوان كعب بن زهير، مراجعة نخبة من العلماء، دار القاموس الحديث، بيروت، ١٩٦٨م.

١١. شرح المعلقات العشر، وأخبار شعرائها، للشيخ أحمد الأمين الشنقيطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

١٢. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر.

١٣. طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمد محمود شاكر، دار المدني بجدة، مطبعة المدني.

١٤. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية، مطبعة باقري، إيران، قم، الطبعة الأولى المحققة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١٥. في الأدب الجاهلي : طه حسين، دار المعارف- مصر، ط١٨ .

١٦. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تصحيح محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٣ ، ٢٠٠٣ م.

١٧. مجمع البيان في تفسير القرآن : أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق وتعليق هاشم الرسولي المحللاتي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٣ ، ٢٠٠٥ م.

١٨. المحاسن والمساوئ، تصنيف الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي(من أعلام القرن الخامس(الهجري)، منشورات الشريف الرضي، مطبعة شريعت ـ قم إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٣.

١٩. مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، تحق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ٢٠٠٠ م.

٢٠. منتهى الطلب من أشعار العرب، جمع محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي(ت٥٩٧هـ)، تحقيق وشرح الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٩٩م.